الفصل الأول: الغاية من دراسة المثاقفة

المبحث الأول: المثاقفة تعريفها وأهدافها والمصطلحات المرتبطة بها

المبحث الثاني: المثاقفة تطور وتاريخ

المبحث الأول

المثاقفة تعريفها وأهدافها والمصطلحات المرتبطة بها

الغاية من دراسة المثاقفة في الأدب:

إن المثاقفة تعنى الاستجابة الإيجابية الناضجة لبعض الأفكار والقيم والمعالجات العميقة، وتضمينها نسيج الثقافة الخاصة بالذات تضميناً يطور من أفق حياة الذات في اتجاهها الأصلي نفسه.

ومن المتفق عليه أن بداية التقدم في أوروبا تعود إلى اقتباس الغرب ونهلهم من علوم العرب في الفلك والكيمياء والطب، بالإضافة إلى التعرف على الثقافة الإسلامية بفروعها المتعددة بما في ذلك مناهج التفكير والمبادئ الأخلاقية للتعامل الاجتماعي ومقاصد التشريع والحكم؛ لذلك ترى أن جوستاف جرونيباوم قد قال في كتابه حضارة الإسلام "إن أولئك الذين احتكّوا بالفكر العربي وأدب السلوك العربي كثيرًا ما كانوا يحسّون إزاءه بإعجاب لا يستطيعون له ردًّا، وكثيرًا ما كانوا يجدون أنفسهم يحاكون العرب في طرائفهم"(١).

وقد ترجم كتب ابن سينا والخوارزمي والرازي وابن خلدون والغزالي وغيرهم ليصبحوا علامات بارزة للغرب في طريق التطور الحضاري، وعلى الشاكلة نفسها ترجم أرسطو وأفلاطون ودانني وجالينوس ليرفدوا الثقافة والعلم الغربيين بروافد لا تقل أهمية عن سابقها، وهكذا فإن مجال المثاقفة قد اتسع في فترات تاريخية معينة لإفادة

---

(١) جوستاف جرونيباوم: حضارة الإسلام ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤، ص٨٠، ٨١.

طرف من الآخر دون أن يصبح فرض النموذج الكلي اجتماعيًّا وثقافيًّا وحضاريًّا هو الهدف الأساس لعالم الغرب أو عالم الشرق في عملية التفاعل والجدل[١].

أهداف المثاقفة العالمية في الأدب:

لعلنا لا نبالغ حين نقول إنه من الجميل والمناسب أن يلعب الأدب بشتى فروعه دورًا عالميًّا في عمليات التأثر والتأثير الثقافي بين شعوب العالم، كما أن صورة الشعر العالمي غنية جدًّا بأنماط المثاقفة والتأثر والتأثير؛ فهي تقدم صورة مشرقة وجميلة عن وحدة الشاعر بالإنسانية وتداخل بعضها ببعض؛ لذلك فإن الأهداف التي يحققها الأدب من جراء ذلك التمازج الثقافي يمكن حصرها بما يلي[٢]:

١- يسعى الأدب إلى التخفيف من حدة الاتجاه الشوفيني التعصبي لأي أدب قومي يرتبط بمصالح سياسية واقتصادية وأيدلوجية.
٢- يؤدى إلى التعرف على ثقافات الأمم الأخرى وعاداتها وتقاليدها ومنجزها الحضاري وأساليب تعبيرها بعدّه مصدرًا من مصادر المعرفة التي تغنى طالبها أديبًا كان أم ليس بأديب.
٣- يقوم الأدب بدور الوسيط الإنساني المشترك في تعزيز قيم التسامح الإيماني والمحبة والتفاهم بين الشعوب إلى درجة يصبح فيها الأدب إحدى الوسائل المهمة في التخفيف من سلطة السياسة والاقتصاد في مظاهرها السلبية التي تسعى للهيمنة على المقدرات الضعيفة للشعوب.
٤- يهدف الأدب في علاقته العالمية التبادلية إلى خلق فرص احترام ثقافة الآخر والتساوي معه أو في الأقل التوازي، مع ضرورة التمسك بحق الاختلاف وضرورته، إذ إن الاختلاف يؤدى إلى الجديد والتميز والإضافة النوعية والجودة.

---

(١) وليد منير: التنمية وأزمة الثقافة: بين ظاهرة الاستلاب وفاعلية التغير، نشر ثقافتنا للدراسات والبحوث، المجلد ٦، العدد ٢٢، لسنة ٢٠١٠، ص١٢٣.

(٢) د. راشد عيسى: وساطة الشعر في التسامح الديني والمثاقفة العالمية، مؤسسة البابطين للإبداع الشعري، الكويت ٢٠١١، ص٢٠، ٢١.

٥- العمل على تخصيب الجوانب التاريخية الفكرية والمعرفية في الأدب من خلال استلهام ثقافات العالم وتوظيفها واستخراج دلالات وآفاق جمالية جديدة منها.

٦- إن العلاقات الثقافية والتبادل في الخبرات الأدبية يؤثر بشكل إيجابي في إزالة الحواجز العرفية والكونية بين الشعوب، وفي أحيان كثيرة تؤدي إلى التخفيف من مظاهر التعصب الدينية والحروب وتنفي قضايا الغطرسة والشعور بالأفضلية عند شعب ما تجاه الآخرين من الشعوب.

٧- يعمل الأدب على مفهوم "العالم قرية صغيرة" ويعزز ذلك من خلال النواحي والعلاقات الإنسانية المتبادلة التي تحترم خصوصيات كل ثقافة من غير هيمنة سياسية أو اقتصادية.

٨- إن الأدب بطبيعته الفنية يقوم بدور فعال في تنمية ثقافة الجمال التي تهدف إلى النضال ضد كل أشكال القبح الإنساني في شتى أنحاء العالم.

٩- تعمل المثاقفة الأدبية العالمية على تخفيف مظاهر الصراع الحضاري القديم بين الشرق والغرب.

١٠- يسهم الأدب في تقوية صور التقارب الاجتماعي بين الشعوب ويقوم بتلبية حاجات إنسانية متعددة.

١١- تؤدي المثاقفة العالمية إلى القيام بدور أساسي في نشر ثقافة احترام الهوية والخصوصية الثقافية في جميع البيئات الإنسانية.

١٢- تقوم المثاقفة العالمية بالعمل على انتشار الأدب الجديد في شتى بقاع العالم بشكل واسع وسريع ومؤثر.

ومن خلال الأهداف المشار إليها أعلاه فإن التأثر والتأثير بين آداب الأمم يؤدي إلى ابتكار أساليب إبداعية تنسجم وطبيعة التنمية الأدبية والنقدية والفكرية في العالم، فنهر الإبداع عالمي المجرى يسقي أراضي القصيدة والرواية والقصة والمسرح ويتدفق بكامل حريته دون حسابات أو معوقات جغرافية أو سياسية أو دينية، ومن ثم فإن ثمار

الخصب الإبداعي العالمي ملك للبشرية بأسرها تجنيها لتسعد بها في رحلة حياتها مع سيدة النبض الكوني الأول "الحرية"[١].

وعلى الرغم من الخصوصية البيئية في الشعر الجاهلي الذي نال اهتمام العديد من المستشرقين، فإن الثقافة العربية تعززت بروافد مصادرها الأخرى من فارسية ورومية وهندية ويونانية حتى ازدهرت علوم الفلسفة والمنطق والفلك والرياضيات والطب وغيرها، بالإضافة إلى ازدهار الأدب الذي غرزه أدباء من جذور ثقافات أخرى، فما فعله عبد الله بن المقفع الفارسي الأصل في ترجمة كليلة ودمنة من الفارسية إلى العربية هو نوع من المثاقفة الأدبية الأممية التي عادت بسمات التقدم والتميز، وقد نمّى العرب هذه المعارف وانتقلت عنهم في العصور الوسطى إلى اللغة اللاتينية، إذ كانت أسبانيا وصقلية جسرين للمشروعات الضخمة للترجمة، وفي القرن الثاني عشر انتقلت المعارف العلمية من الشرق إلى غرب أوروبا التي كانت آنذاك في مرحلة ابتدائية، إذ أخصبت بعض نماذج الأدب العربي الثقافة الغربية إخصابًا واسعًا، فاستلهم الأدب الغربي تلك النماذج وطورها وأعاد تشكيلها حتى باتت جزءًا من ثقافته الخاصة، فتحقق التثاقف العالمي بين حضارة الشرق وحضارة الغرب عبر الاستقراض المتبادل لنموذج الأدب عن طريق مجموعة كبيرة من وسائط التثاقف كحركة الاستشراق والترجمات والرحلات والتجارة ودراسات المراكز الثقافية العالمية ودراسات الأدب المقارن التي أدت دورًا عظيمًا في إبراز ظاهرة المثاقفة العالمية، ومازال الأدب المقارن يقوم بالدور الرئيس في هذا المجال فيدرس الظاهرة وجذورها التاريخية ودوافعها وأساليبها وانعكاساتها الفنية المختلفة وتأثيرها الفكري في المعرفة الكونية[٢].

إن ثقافتنا العربية تشكل منظومة متناسقة متجانسة صاغها الإنسان العربي في مسيرته التاريخية من خلال خطابه مع نفسه واتصاله بأبناء جنسه، وتعامله مع الطبيعة

---

(١) د. راشد عيسى: وساطة الشعر في التسامح الديني والمثاقفة العالمية، مرجع سابق، ص٢٢.

(٢) أ.ل.رانيلا: الماضي المشترك بين العرب والغرب، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، مراجعة فاطمة موسى، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٤١، الكويت ١٩٩٩م، ص١١.

والبيئة، واللغة التي يعبر بها عن مكنونات نفسه، والأدب الذي يعبر عن مشاعره وعواطفه والآمال التي يسعى لتحقيقها لتقف سدًّا منيعًا في وجه أطماع الطامعين وعدوان المعتدين وتحفظ للعرب هويتهم الثقافية وطابعهم الإنساني، فانطلقت جملة الشعوبيين في العصر العباسي وكانت شرسة حاقدة ولكنها لم توهن الثقافة أو تضعف توهجها أو تقلل من إبداعاتها المختلفة، فظل الأدب العربي المرآة الناصعة التي تعكس رقة وذوق الإنسان العربي وإبداعاته.

المصطلحات المتعلقة بالمثاقفة:

قبل الحديث عن الموضوع الرئيس وهو مفهوم المثاقفة ومن ثم علاقتها بالأدب لابد أن أشير إلى بعض الحقائق المتعلقة بمفهوم الثقافة بشكل عام، والحق أن هناك تعريفات كثيرة وصفها كتاب عرب للثقافة لا يتسع المقام هنا لذكرها جميعًا.

الثقافة لغة:

لهذه اللفظة في اللغة العربية بنى صرفية كثيرة تعمل معاني لغوية عديدة متباعدة أبرزها وأقربها إلى المعنى الاصطلاحي كما قال الأصفهاني: "الحذق في إدراك الشيء وفعله"، وأضيف أيضًا: "ثم يتجوز فيه فيستعمل في الإدراك وإن لم تكن معه ثقافة"(١)، مستشهدا بقوله تعالى: " وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ" (٢)، كما وردت بمعنى التقويم والذكاء، وهناك من يقول: "الثاء والقاف والفاء كلمة واحدة إليها يرجع الفروع، وهى إقامة درء الشيء يقال: ثقفت القناة إذا أقمت اعوجاجها ورجل ثقف لقف وذلك أنه يصيب علم ما يسمعه على استواء"(٣)، أما ابن منظور فيقول إنها من الفعل ثقف،

---

(١) الراغب الأصفهاني: مفردات غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان، الدار الشامية، بيروت ١٩٩٢، مادة (ث ق ف).

(٢) [البقرة/ ١٩١].

(٣) ابن فارس: مقاييس اللغة: تحقيق شهاب الدين بن عمرو، دار الفكر، بيروت ١٩٩٨ مادة (ث ق ف).

وتثقيف الشيء يعني تسويته وتهذيبه وصقله، والثقف والتثقيف يطلق على الحاذق الفطن[١].

وهكذا نقلت المعاجم اللغوية الحديثة هذه المعاني نفسها.

الثقافة اصطلاحا:

عرفت أدبيات الفكر العربي والإسلامي هذا الاصطلاح من خلال بعض العلوم الإنسانية التي نقلت في بدايات القرن العشرين عن اللغات الأوروبية، ولعل سلامة موسى أول من أطلق لفظ (ثقافة) بالمعنى الاصطلاحي المتداول في الأدبيات العربية الآن[٢].

فمصطلح الثقافة ترجمة للفظة الأوروبية (Culture)، وهذه تعود إلى الأصل اللاتيني (Cultura) وتعني الزراعة، وأيضًا تهذيب الروح ومعاني أخرى قريبة من هذا المعنى منها تهذيب العقل، وأيضًا بمعنى تربية الأطفال[٣].

التثاقف والاستلاب:

يستخدم مفهوم الاستلاب بشكل واسع في الخطاب العربي المعاصر، وينحسر دوره في وصف علاقة المثاقفة الواصلة بيننا وبين الغرب، ولفظ الاستلاب دال مفهومي يستعمل خاصة من قبل الاتجاه الناقد لتقليد الغرب وذلك للدلالة على حالة التبعية الثقافية للغرب ونقدها، وهناك من يطلق عليه الانسلاب ويعنى انسلاخ الشخص

---

(١) ابن منظور، محمد بن كرم: لسان العرب، إعداد وتصنيف يوسف الخياط، بيروت، ب.ت مادة (ث ق ف).

(٢) نصر محمد عارف: ثقافة الحضارة، المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، هيوندن فرجيتار، المعهد العالي للفكر الإسلامي، الرياض ١٩٩٤، ص٢٦١.

(٣) د.حسين مؤنس: الحضارة، سلسلة عالم المعرفة رقم ٢٣٧، ط٢ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٩، ص٣٧٧.

عن نفسه ليصبح خاضعًا ومتمثلاً بشخص آخر فيصل هذا الانسلاخ إلى ذروته عندما يقتلع الإنسان من جذوره الحضارية ليغرسه في بيئة حضارية أخرى[١].

المثاقفة والاستيعاب:

إن الاستيعاب الثقافي هو شكل من أشكال التثاقف، فبموجبه يتنازل الفرد أو المجموعة عن الثقافة الأصلية لتبني قيم مجموعة جديدة. ويعد الاستيعاب المرحلة الختامية لمرحلة المثاقفة التي تنتهي باستبدال الفرد ثقافته وقيمه بقيم وثقافات أخرى مؤثرة فيه[٢].

التبعية الثقافية:

بدأت هذه التبعية تاريخيًّا خلال الحقبة الاستعمارية للبلاد العربية وتشكلت نتيجة تفاعل جدلي بين عوامل داخلية وخارجية، وتعد التبعية في ضوء عواملها الداخلية والخارجية ذات وجهين؛ الأول: تكون فيه الثقافة المحلية أكثر خضوعا واستجابة وتكيفًا مع عناصر وبنود ثقافية أخرى خارجية، أما الوجه الثاني: فتكون فيه الثقافة المحلية عاجزة وقاصرة عن تلبية متطلبات البيئة الاجتماعية التابعة، فتستدعي هذه البنية عناصر ثقافات أخرى تسهم بمرور الزمن في زحزحة الثقافة المحلية ومحاصرتها أو نفيها بالتدريج بسبب تجزئتها وتفكيك علاقاتها بأصعدة بنيتها المشوهة بفعل العديد من أنماط التبعية[٣].

---

(١) مرسي مشري: المثاقفة ودورها في تنمية الوعي السياسي لدي الشباب العربي ، ص٢٩٤، .

(٢) السابق، ص٢٩٤.

(٣) د. عبد الباسط عبد المعطى: التبعية الثقافية، دراسة في مظاهر التبعية الثقافية وآلياتها وردود الفعل اليومية نحوها، مركز البحوث العربية، القاهرة ١٩٩٣، ص٢٥١، ٢٥٢.

الانتشار الثقافي:

هو عبارة عن نقل الأنماط الثقافية على المستوى الأفقي من مكان إلى آخر، فقد استخدم هذا المصطلح من قبل تايلور في كتابه "الثقافة البدائية" وهو يشير إلى انحرافات روائية، كما يشير في موضع آخر إلى السمات والعناصر الثقافية في مجتمعات متباعدة وذكر أيضًا أن التشابه ناتج عن الثقافة وهجرتها وانتقالها من مصدر واحد، أو عدة مراكز مشتركة إلى مراكز ومجتمعات أخرى نتيجة للاتصال الثقافي بين هذه المجتمعات، وعليه فإن الانتشار الثقافي هو "انتقال العناصر الثقافية من مجتمع لآخر" وهو أيضا دراسة النقل الثقافي الذي أنجز فعلا(١).

الصراع الثقافى:

تتبع المتناقضات الثقافية من داخل المجتمع، ويؤدى إزالة هذه التناقضات إلى تغيرات ثقافية مختلفة فيه، ويُحسم الصراع بإنهاء جانب من العناصر الثقافية لحساب عنصر آخر، ويكون ذلك إما باستبدال عناصر جديدة، أو بتنمية العنصر الغالب في الثقافة، وفى تلك الحالتين يؤدى الأمر إلى تغير داخل الثقافة، أي أن التصادم بين القيم أصلا يؤدي إلى التغير في نهاية الأمر(٢).

التثقيف:

يخص مصطلح التثقيف التفاعل بين العلوم والمعارف، إما في الثقافة الواحدة، أو بين عدة ثقافات، ذلك أن مباحث النقد الأدبي مثلاً تشكلت من عملية تثقيف بين علوم ومعارف أخرى: الفلسفة، والمنطق، وأصول الفقه، والرياضيات(٣).

---

(١) د. خالد محمد أبو شعيرة، د. ثائر أحمد غباري: الثقافة وعناصرها، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، ط١، عمان ٢٠٠٩، ص٤٣.

(٢) السابق، ص٤٥.

(٣) د. عبد الجليل شوقي، المثاقفة في الدراسات الحديثة، هيمنة أم حوار، بحث منشور على صحيفة المثقف، العدد ١٩٩٩ ليوم الخميس ٢٠١٢/١/١٢، موقع almothaqaf.com.

مفهوم المثاقفة:

يقوم مفهوم المثاقفة على الاحتكاك والتفاعل المباشر والمستمر بين الأفراد من ثقافات مختلفة، وهو ما يسمح لنا بالحديث عن مفهوم المثاقفة من حيث اللغة والاصطلاح وبعض المصطلحات الأخرى منها التثاقف والغزو الثقافي والحوار الثقافي، وهذا يؤكد أن مصطلح المثاقفة يستبطن معنيين أحدهما نقيض الآخر فيتمثلان بتفاعل ثقافي مبني على النزعة الإمبريالية الهادفة لمحور الآخر وطمس هويته وفرض التبعية عليه، أو تفاعل ثقافي متوازن مبني على الندية والتسامح واحترام الآخر، لذلك اقتضت الضرورة توضيح مفهوم المثاقفة ومن ثم الحديث عنها من حيث التطور والتاريخ.

المثاقفة لغة:

هذه الكلمة مشتقة من مصدر الفعل، ثقف الشيء ثقافة بمعنى حذقه، رجل ثقف، حاذق الفهم، وتقول العرب ثقف الرجل ثقافة، أي صار حاذقًا ومنه المثاقفة وتعني المطارحة في العلم، فهي تعنى التقويم، تقول العرب: ثقفت القوس أي قومته، ثقف الطفل أي أصبت في ذهنه بالمعرفة والتربية[1]، وثاقفه مثاقفة وثقافًا خاصمه وجالده بالسلاح ولاعبه إظهارًا للمهارة والحذق، وثقف الشيء: أقام المعوج منه وسواه، وثقف الإنسان أدبه وهذبه وعلمه[2].

المثاقفة اصطلاحًا:

يمكن تعريفها من منظور الأدب والنقد على أنها عملية التطور الثقافي الذي يطرأ على مستويات الفنون الأدبية شعرية أو نثرية، بعد ما تدخل جماعات من الناس أو شعوب تنتمى إلى ثقافتين مختلفتين ولغتين مختلفتين في اتصال وتفاعل يترتب

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، مرجع سابق، ص ٣٦٤، ٣٦٥.

(٢) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، الجزء الأول، مطابع الأوفست بشركة الإعلانات الشرقية، ط٣، القاهرة ١٩٨٥، ص١٠٢.

عليهما حدوث تغييرات في الأنماط الثقافية الأصلية السائدة في الجماعات كلها أو بعضها[١].

أما المفهوم الإجرائي للمثاقفة فهي تعد علاقة تطبيقية تفاعلية بين ثقافتين مختلفتين أو أكثر، تنشأ جراء توليد علاقة تتميز بتبادل الخبرات والمعارف أو انتقالها من حقل مجتمعي إلى آخر إراديًا وفي مقابل ذلك يمكن الحديث عن الاستلاب الثقافي الذي يقصد به في الاستعمال المتداول تطور علاقة المثاقفة إلى انسلاخ من الذاتية الثقافية واعتناق ثقافة الآخر[٢].

أما مصطلح المثاقفة فقد ظهر في حقل العلوم الإنسانية في الأنثروبولوجيا الأمريكية في عام ١٨٨٠، وكان لدراسة التفاعل والتماس الحاصل بين الأنساق الثقافية للمهاجرين الجدد في أمريكا، وكان أول من استعمله وظيفيًا هو جون ويسلي باوول عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي عام ١٩٣٦، ثم اعتمد مصطلح المثاقفة والتعاقد على وضع تعريف له خلاصته أن المثاقفة هي مجموع الظواهر والتغيرات الناتجة عن اتصال مستديم ومباشر بين مجموعات من الأفراد من انتماءات ثقافية مختلفة[٣].

ويبدو أن الترجمة ظاهرة ملازمة لتاريخ الحضارات الإنسانية قاطبة فبواسطتها يحدث التبادل الفكري والتفاعل الثقافي والإطلاع على منتجات الآخر في شتى فنون المعرفة، ومن ثم تسهم في إغناء الثقافة المحلية وفسح الطريق لها لتنويع مشاربها وتوسيع الآفاق التي تنتج منها. من هنا قامت المثاقفة على آلية إجرائية أساسية هي الترجمة التي تعد الركن الأساس في تفعيل العملية التثاقفية كلها، فكل نص مكتوب أو شفوي يتضمن رؤية وخطابًا، وتتراوح المستويات فيه انطلاقا من درجات التأويل

---

(١) أحمد قويدر: مفعولات المثاقفة على المثقف الجزائري، نشر جامعة تامان، الجزائر ٢٠٠١، ص٢، ٣.

(٢) د. حبيب بوهر: تمثل الآخر في النص الأدبي الأوروبي الحديث، مقاربة لآليات التفاعل النصية، بحث منشور في مجلة آداب البصرة، العدد٥٦، البصرة ٢٠١١، ص٣.

(٣) السابق، نفس الصفحة.

والقدرة على بلورة صورة معينة حول الذات والآخر خصوصًا في النصوص التي لها علاقة بالشخص[١].

وهناك تعريف آخر للمثاقفة يكمن فى كونها تفيد تأثير ثقافة قوية أو مستقوية وغازية وقاهرة في ثقافة ضعيفة أو مستضعفة ومغزوة ومقهورة، وهى حال الثقافة الغربية الاستعمارية في بلدان الشمال على الثقافات القومية والوطنية المحلية في بلدان الجنوب[٢]. أما المثاقفة عند طه حسين فتعني الأخذ والاقتباس من الحضارة المتفوقة وثمارها الثقافية بدءًا من طرائق التعليم الحديثة إلى كل أشكال التعبير الأدبي الجديدة علينا كالرواية والمسرحية والمقالة، وأما وسيلة المثاقفة فتنحسر في الاتصال المتين بالحضارة الأوروبية في شتى مجالات الحياة[٣].

المثاقفة السياسية:

ربما يكون مفهوم المثاقفة السياسية مختلفًا إلى حد كبير عن تلك المفهومات السائدة في مجال علم الاجتماع السياسي والثقافي، كما أن هذا المفهوم يختلف عن الاحتكاك الثقافي أو التثاقف بعدّها عمليات اجتماعية تشير إلى أبعاد كثيرة ومتداخلة تعني أول ما تعنيه أنه عملية الترابط بين ثقافتين إحداهما خارجية والأخرى داخلية تؤثران في بعضهما بعضًا، وتعيد الإنتاج في ثقافة متغايرة، أو ربما تجمع بين عناصر الثقافتين في آن. وبما أن العلاقة بين ثقافة الأنا (الثقافة المحلية) وثقافة الآخر (الثقافة الواحدة) تحكمها عملية تفاعل بين الثقافتين، فإننا نحاول أن نبتعد بمفهومها حول

---

(١) د. حبيب بوهر: تمثل الآخر في النص الأدبي الأوروبي الحديث، مقاربة لآليات التفاعل النصية، مرجع سابق، ص٥.

(٢) مرسي مشري: المثاقفة ودورها في تنمية الوعي السياسي لدي الشباب العربي، مرجع سابق، ص٢٨٩.

(٣) محمد باسل سليمان: المثاقفة تفاعلات واستيعابات، مقالة منشورة بموقع
http: www.alhewar.org/debat/show.art.asp?aid-132513

المثاقفة السياسية عن تلك المعانى؛ لأنه ليس هناك مجال لعملية التكافؤ بين الثقافتين أصلاً أي بين ثقافة الأنا وثقافة الآخر[١].

فالمثاقفة السياسية هي عملية تناقل ثقافي وسياسي يتم بشكل تلقائي عفوي المسار، تتلاقى فيه عناصر الثقافات التقليدية السائدة في المجتمع، والتي تنتقل عبر الأجيال في مسار أفقي، وتُوظّف في صالح التكيف أنماط وظيفية مع الواقع الفعلى المعيش، أو تكييف الواقع على مستوى الإدراك برغم زيفه – حتى يتفق مع رموز الثقافة ورواسبها التقليدية[٢].

---

(١) د. أحمد مجدي حجازي: المثاقفة السياسية في مجتمع ما قبل الحداثة، نشر مركز الدراسات السودانية، القاهرة ١٩٩٥، ص٤٩.

(٢) السابق، ص٥٠.

المبحث الثاني

المثاقفة تطور وتاريخ

مقدمة:

إن الدور الأساسي للمثاقفة ينحسر في التغير والتطور الثقافي الطارئ على مختلف الجماعات البشرية جراء حميمية التفاعل والتواصل فيما بينها على اعتبار ما تحمله كل أمة من رغبة في معرفة الآخر واستثمار ما لديه من قيم ومعطيات إنسانية وحضارية نبيلة، وهو يؤدي إلى تنمية كيانها الثقافي بشكل خلاق غير مضر بمقومات الهوية القومية وثوابتها، بالإضافة إلى ما تعكسه روح الثقة والتسامح بين الأفراد والجماعات، إذ تزيل كثيرًا من الأوهام، وتساعد في تفعيل القواسم المشتركة بين كل الأطياف، وعليه فإن شيوع ثقافة المثاقفة في أي مجتمع بصورتها الإيجابية البعيدة عن ملامح الاقتباس الكلى والاستعارة العمياء سيوفي مساحة كبيرة لنماء ثقافة إيجابية أخرى.

وللمثاقفة الفضل في إقامة الجسور بين بني البشر ومن ثم تحقيق التواصل الحقيقي الذي يجعل من العالم قرية صغيرة فيعرف بعضه بعضا ويتفهمه على نحو يحقق الخير للإنسانية ويخدم مصالحها العامة، فهي ستظل: "بمثابة السماد للتربة يقيها الجدب ويكسبها القدرة على المزيد من الإنتاج والعطاء، فهي اللقاح الكفيل بابتكار مبادئ وقيم مستحدثة وإنجاب تصورات وخيارات جديدة أقدر على السمو بالوضع البشرى وأنجح في تحقيق رقيه وفتح الآفاق العريضة أمام مستقبله[1].

---

(١) محمد عمارة: العطاء الحضاري للإسلام، سلسلة اقرأ رقم ٦٢٦ دار المعارف، القاهرة ١٩٩٧م، ص١٢٩ وانظر:

– ول ديورانت: قصة الحضارة ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٤م، ص١٧٧.

وقد زخرت الإنسانية عبر تاريخها الطويل بمظاهر المثاقفة التي لازمت مسيرة الإنسان العلمية والاجتماعية، وإن كان ما لدينا من وثائق لا يساعدنا كثيرًا في سوق الدلائل التي تثبت تثاقف الحضارات القديمة بالرغم من ضعف وسائل الاتصال واتساع المسافات التي تفصل بين مختلف الدول، فإن ما عثر عليه الباحثون والمؤرخون من وثائق وتسجيلات ونقوش أثبتت بشكل قاطع أن تلك الحضارات قد دخلت في عمليات مثاقفة مستمرة ودائمة، فربطت بين عقول المبدعين الذين صنعوا تاريخ البشرية، فكانت حقًّا إنجازاتهم العلمية والفنية ثمرة لهذا التلاقي والتواصل تستوي في ذلك الحضارة الصينية وحضارة ما بين النهرين والحضارة المصرية القديمة والحضارة اليونانية وغيرها من الحضارات الإنسانية الأخرى التي تواصلت وأمدت بعضها بعضًا، وهو ما عبر عنه أحد الدارسين بقوله: "إن المعارف التي انحدرت من بابل وكنعان ومصر والهند هي التي هيأت الظروف لظهور المعجزة اليونانية التي يظن كثير من الناس أنها ولدت من العدم، لأن التاريخ يعلمنا أنه لا شيء يحدث من لا شيء"[(١)]. وهناك من أكد هذا المفهوم بقوله عن المعجزة اليونانية المزعومة: "لها أب وأم شرعيان، أما أبوها فهو ترك مصر القديمة، وأما أمها فهي مهد بلاد ما بين النهرين والشرق القديم مهد الحضارات، والمعلم الأول للبشرية في المجالين المدنية المادية والعلوم كلها، وفى المجال الروحي والمعتقدات الدينية[(٢)].

وتهدف المثاقفة دائمًا إلى الثراء الفكري والغنى الحضاري والتقارب بين أجناس البشر، وعكسها الغزو الفكري الذي لا ينتج إلا التنافر وزيادة الفرقة بين الأمم والشعوب؛ لأن وسائل الإكراه والإجبار والتسلط التي يمارسها من أجل فرض ثقافة غالبة وإزاحة الثقافة المغلوبة عن وسطها الحيوي يولد رد فعل يتخذ اتجاهين متعاكسين

---

(١) د. محمد زرمان: الترجمة وفعل المثاقفة بحث منشور على الإنترنت، على موقع Faculty.ksu.edu.

(٢) جورج سارتون: تاريخ العلم، ترجمة محمد خلف الله وآخرين، طبعة القاهرة ١٩٥٧م، ج١، ص١.

لكنهما مدمران للذات الحضارية المستلبة، فيتم مواجهة هذا الغزو بالانغلاق وهذا يؤدي إلى إفقار الذات وأيضًا حرمانها من الغنى الموجود في ثقافة الآخر المعتدية، أو يتم التباهي بثقافة الغازي والذوبان فيها وهذا أيضًا يؤدي إلى إفقار الذات باقتلاعها من جذورها الغنية وحرمانها من هويتها وخبراتها ومكتسباتها التاريخية التي تعطيها التميز وتمكنها من التفاعل مع الآخرين(١).

وهكذا استطاعت الإنسانية عبر مراحل تاريخها الطويل أن تشهد نماذج عديدة لهذه المثاقفة التي كان لها الأثر الواسع في التقريب بين الأمم من خلال إثراء تجاربها الحضارية وتوسيع آفاقها وإشاعة الفكر الإنساني وإتاحة المجال للاطلاع عليه من قبل الجميع والمشاركة فيه، فأصبحت هذه الظاهرة مكررة بل زادت وتيرتها جراء التقدم الحاصل في مجال الاتصالات، ولو أمكن لأي أمة مستقلة بمفردها أن تنتج وتبدع إلا أنها تتمكن من زيادة كمية الإنتاج ورفع نوعية الإبداع وتوسيع ساحة العطاء من خلال التلاقي والاحتكاك والتعاون(٢).

ففي الوقت الذي أزاحت فيه أوروبا العرب عن زعامة البحر المتوسط من خلال استيلائها على صقلية والجزء الأكبر من أسبانيا ثم سيطرتها على زعامة التجارة البحرية، استولت الثقافة العربية على أوروبا الغربية التي كانت قد بلغت وقتئذ مستوى كبيرًا من النضوج الفكري مكّنها من استيعاب العلوم العربية، فبين ظلام القرون الوسطى وعصر النهضة امتد عصر الترجمات العظيم وهو العصر الذي استقت أوروبا فيه المعارف من مؤلفات علماء المسلمين التي وضعوها في القرون الميلادية، التاسع – الحادي عشر للغة العربية، فكانوا بذلك الجسر الذي عبرت فوقه أوروبا إلى العصر الحديث، ومع صعود أوروبا تراجعت الأهمية العالمية التي كانت للبلدان

---

(١) د. محمد زرمان: الترجمة وفعل المثاقفة، مرجع سابق، ص٥.

(٢) أحمد لواساتي: العلاقات التاريخية بين العرب والإيرانيين، بحوث مناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ١٩٩٦، ص٧٤.

العربية، فبعد أن قفز العالم الأوروبى قفزته الأولى لم يلق بالاً في الحياة العلمية لبلدان الشرق[١].

وعلى الرغم من ذلك فإن النظم العميقة الجذور في الثقافة تقاوم التغير حتى لو كان التغير ملحًّا، ولكن عملية التغير في الثقافة لازمة ولابد منها ولا يمكن إلغاؤها، فالإنسان في أيامنا هذه نتيجة لاتصاله بالمجتمعات الأخرى التي لها ثقافة خاصة بها يواجه بإحباطات دائمة في علاقاته مع البشر الآخرين أصحاب الثقافات الأخرى؛ لأن ثقافاتهم قد تكون بعيدة عن ثقافته، ولكنه مضطر للتفاعل والتعايش مع تلك الثقافات المحيطة، لذا يصبح من الضروري أن يتأثر بثقافة الآخرين، وقد يتأثرون هم أيضًا بثقافته، وهنا يحدث ما يمكن أن يسمى التبادل الثقافي أو الامتزاج الثقافي، والتثاقف بهذه الحالة يعنى العملية التي تنتقل بها الثقافة، خلال اتصالات مستمرة مباشرة بين جماعات أو أفراد ذوي ثقافات مختلفة، ويلقى التثاقف استجابات مختلفة وفقًا لطريقة الاستيعاب ولممارسة مثل القبول الذي يقصد به استعارة الجانب الأكبر من الثقافة الجديدة.

وتمثل أنماط السلوك والقيم الداخلية لهذه الثقافة والتكيف مع العنصر الثقافي الذي تم قبوله والتواؤم مع نظائره في ثقافة المستعير الأصلية وتكون النتيجة النهائية للتبادل الثقافي أو التثاقف ما يسمى التمثل أو الانصهار الثقافي؛ بمعنى أن يصبح الفرد مستوعبًا للثقافة الجديدة وممارسًا لها أو مازجًا بين ثقافته وتلك الثقافة، وتتم عملية التثاقف حين تتدخل جماعات من الأفراد الذين ينتمون إلى ثقافتين مختلفتين في اتصال مباشر ومستمر مما يترتب عليه حدوث تغيرات في الأنماط الأصلية السائدة في إحدى هاتين الجماعتين أو فيهما معا[٢].

---

(١) مجموعة من المستشرقين: المناقضة بين العروبة والإسلام، ترجمة د.حسان إسحق، دار الحصاد، ط١، سوريا ٢٠٠٠، ص٦، ٧.

(٢) د. خالد محمد أبو شعيرة، د.ثائر أحمد غباري: الثقافة وعناصرها، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، ط١، عمان ٢٠٠٩، ص٤٢.

ولا يزال مفهوم المثاقفة إلى الآن مفهومًا أورو- أمريكيًّا يعمل فقط لمصلحة المركزية الأورو- أمريكية الأدبية الفكرية بعدّه مفهومًا للتمحور حول مفاهيم فرعية أخرى حول مقولات (تحضير المتوحش)، (نهب الأرض المتخلفة)، (مؤاخاة المتخلف عبر تدجينه واستغلاله)، وكل ذلك يؤدى إلى نتيجة مؤداها التحول إلى التبعية الدائمة لمراكز الأدب الرأسمالي، في حين ظهرت على الساحة بعض الأصوات الأوروبية القليلة والتي تطالب ولو نظريًّا فقط بالاطلاع والانفتاح على الثقافات الأخرى من وجهة نظر تجميل العالمية ولكن على الرغم من حصر هذه الثقافات الأخرى في مجال موحد (الشرقية، السلافية الأفريقية، الصينية) فإن صفة الأخرى تبقى لاصقة وما ذلك البقاء إلا مجرد كونها آدابًا ذليلة[1].

من هنا يتحتم محاربة تلك التبعية من خلال إعادة إنتاج الثقافة الشعبية الديمقراطية ومن ثم الاعتماد على النفس والمعرفة الصحيحة لحدود الهوية الوطنية، ويضاف إلى ذلك اختيار النموذج الثقافي الديمقراطي في العالم والتحالف معه، ويتم ذلك من خلال مواجهة الإغراءات الثقافية التابعة المحلية ورفض جماليات الاستهلاك الخادعة، فهناك مفهومان لنظرية المثاقفة هما المثاقفة الطوعية والمثاقفة التحررية علمًا أن السائد هو المفهوم الأورو- أمريكي أي (التثقيف الإجباري والتزام النموذج الأوروبي)، أما نظرية التبعية فلها ثلاث حالات هي[2]:

١- حالة تاريخية استعمارية.
٢- حالة استعمارية جديدة وحديثة مطورة الشكل.
٣- حالة تلذذية يصرح فيها التابع بعبوديته.

والمثقف في عالمنا العربي التابع ربما يكون أقرب كثيرًا من الحالة الثالثة، ومن هنا يتضح أثناء تحليل النص الأبي والنص الثقافي أنه لا يمكننا أن نقول بمقولة (النص

---

(١) د. عز الدين المناصرة: النقد الثقافي المقارن منظور جدلي تفكيكي، دار مجدلاوي للنشر، ط١، الأردن ٢٠٠٥، ص٤٣.
(٢) السابق، ص٤٥.

المغلق) الشكلانى؛ لأنها مقولة إطلاقية تتعلق بمطلقات غير موجودة حتى في النص (الصافى)؛ إذ إن اللغة نفسها لها دلالات أيديولوجية في رؤيتها للعالم المتطور، لكن ذلك لا ينفي وجود الخصوصية في الواقع النصي، فعندما نقرأ بلاغة وعلامات ولسانيات البعض، فإن وظيفة الناقد أن يقرأ خبايا ومكبوتات النص لمعرفته إطار فهم آليات التفاعل داخل النص وفهمها مع المحيط القريب، لذا فإن إنتاجية النص وأسباب استقباله ودرجاته هو مجال المثاقفة والتفاعل الثقافي؛ أي أن التحليل الأدبي هو المرحلة الأولى من مراحل القراءة الثقافية للنص، لكن مفهوم المثاقفة يظل يحمل مفهومًا سيء السمعة وتلك هي المشكلة[1].

والجدير بالذكر أن المثاقفة العربية قادرة بسهولة على تحقيق البعد العالمي فيما إذا اتصلت اتصالاً حقيقيًّا بمصادر ثرواتها واستخرجتها وتفاعلت معها، ثم أتيح لها من يعرضها باللغات الأجنبية المنتشرة عرضًا أدبيًّا لا يعتمد فيه على الترجمة بقدر ما يعتمد فيه على استيعاب الأعمال الأدبية والتأثر بها وإعادة إنتاجها إن صح التعبير باللغة الأجنبية؛ مثلما فعل فيترجرالد في تمثله لرباعيات الخيام فأعاد كتابتها باللغة الإنجليزية، فجاء عمله قطعة أدبية فنية رائعة تنقل ما وراء اللغة من نبض وإيحاء، فانتشرت ترجمته منذ الطبعة الثانية سنة ١٨٢٦ في أوروبا وأثارت الإعجاب بها وكان لها تأثيرها الكاسح، فالثقافات إذن شأنها شأن الناس على اختلاف عصورهم وبلدانهم فمنها عوالم مشتركة تقرب بينها، ثم إن لكل واحدة منها خصوصية تميزها[2].

نظرية التثاقف والثقافتية:

لقد تولدت نظرية التثاقف من خلال بعض التساؤلات الثقافتية الأمريكية، لذلك ليس غريبًا أن نلقى ثانية في بنائها الحدود نفسها، لا بل المأزق نفسه الذي في الثقافتية،

---

(١) عز الدين المناصرة: الإحساس بالعالم والتلذذ بالتبعية، محاضرة ألقيت في المؤتمر الثاني للرابطة العربية للأدب المقارن المنعقدة بدمشق، ٩ يوليو ١٩٨٦، ص١٥، ١٦.

(٢) فكتور الكك: الثقافة العربية في مواجهة المستقبل، منشورات المجمع الثقافي العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٦، ص٨٠، ٨١.

على هذه الشاكلة يفرط التحليل في التركيز أحيانًا على بعض السمات الثقافية، منظورًا إليها معزولة، ويبدو أنه ينسى ما كان علماء أنثربولوجيا مدرسة الثقافة والشخصية قد أكدوا وجوده، وهو أن كل ثقافة هي كل نسق، وبالإضافة إلى ذلك، وبسبب أن كل ثقافة وحدة منظمة ومبنية تكون كل العناصر فيها مترابطة، فإن من الوهم كما يتمنى ذلك الضرب من الإنسانوية أن يدعى انتقاء الجوانب المفترضة (إيجابية) في ثقافة لربطها مع جوانب "إيجابية" في ثقافة أخرى، لغرض بلوغ نسق ثقافي أفضل(١).

بالإضافة إلى ذلك فإن التأكيد المبالغ فيه لدى بعض الكتاب على ما أسموه "البقايا" الثقافية، أي على عناصر الثقافة القديمة التي احتفظ بها على حالها ضمن الثقافة التأليفية الجديدة، يمكن أن يفضى إلى نوع من "تطبيع" الثقافة وذلك بسبب الحرص – مهما كان الثمن – على إثبات استمرارية الثقافة. وبالرغم من كل التغيرات الظاهرة فتبدو الثقافة بالفعل عندئذ وبالنسبة إلى الفرد وكأنها كما يرد في تعبير متواتر الاستعمال "طبيعة ثانية" ليس بإمكانه التحرر منها شأنها شأن طبيعة البيولوجية.

وكان كل غرض الدراسات اللاحقة حول صيرورات التثاقف تحديدًا هو تنسيب هذه المماثلة بين الثقافة والطبيعة وإبراز أهمية ظواهر التقطع في صيرورات التثاقف(٢).

لقد كان علماء الانثربولوجيا محقين في إلحاحهم على أن الأفراد هم الذين يكونون في تماس مع بعضهم بعضًا لا الثقافات، وفعلاً يجب ألا تكون الثقافة، إذ إنها ليست إلا تجريدًا لكن هؤلاء الأفراد ينتمون إلى مجموعات اجتماعية ومجموعات جنس وسن، إذ إنهم لا يوجدون في أي مكان أبدًا بكيفية مستقلة تمامًا، فلا يمكن أن نفهم إذا كان اندراجهم في صيرورة التثاقف من خلال الرجوع إلى نفسيتهم الفردية(٣).

---

(١) دنيس كوش: مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة د. منير السعيداني، مراجعة د. الطاهر لبيب، المنظمة العربية للترجمة، ط١ بيروت، مارس ٢٠٠٧، ص ٩٨.

(٢) السابق، نفس الصفحة.

(٣) السابق، ص٩٩.

العلاقة بين المثاقفة والغزو الثقافى

لم تكن الثقافة منظومة جامدة لا تتغير بل إن أكثر مكوناتها قابلة للتطور مع مرور الزمن بفعل العديد من المؤثرات الحضارية العديدة سواء أكانت ذاتية أم خارجية.

فالثقافة الأوروبية التي استحوذت على تسمية الثقافة الغربية تختلف اليوم عما كانت عليه بعصر النهضة أو القرون الوسطي، والحال نفسه بالنسبة للغة العربية فهي اليوم ليست كما كانت في القرن التاسع عشر. وإذا عدنا قليلاً إلى الوراء اتضح أن الثقافة العربية الإسلامية لم تكن نسخة من الثقافة العربية في العصر الجاهلي بل على العكس كانت ثورة عليها في مدلولاتها ورسائلها وتعبيراتها بالإضافة إلى نظرتها إلى الإنسان والكون، وعليه فإن هذا التطور يعبر عن حركة ذاتية للثقافة بيد أنه تضاف إلى هذه الحركة الذاتية وترافقها في أغلب الأحيان مؤثرات خارجية تعمل على تطوير الثقافة، وهكذا يتضح أن الثقافة تعبير عن الحياة الإنسانية وهى مثلها في حركة مستمرة دائمة ندعوها التطور الثقافي. (١)

هكذا نجد خلال التاريخ البشري أن كل شعب قد تأثر بثقافة شعب أو شعوب أخرى ولاسيما إذا كان له بها صلة جوار أو قرابة، فإذا وجد فيها ما ينفعه ويشوقه ويغنى معرفته ويثريها اقتبس منها ما استطاع، وطور ثقافته بما اقتبس، فعندما تتطور ثقافة أي شعب وتتسع بفضل عطاءات أبنائه وإبداعاتهم المتواصلة سيؤدى ذلك إلى إقبال الشعوب الأخرى للنهل من ثقافتهم والاقتباس منها، حتى أن المفكر الجزائري مالك بن نبي قال: "إن الثقافة تسير كما تسير الشمس، فإنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب ثم تتحول إلى أفق شعب آخر".(٢)

---

(١) شحاته الخورى: أوراق ثقافته، دار الطليعة الجديدة، ط١، سوريا ٢٠٠١، ص٩٧.

(٢) السابق، ص٩٨.

وهذا التأثر والتأثير أو هذا الأخذ والعطاء أو الاقتراض والإقراض هو ما يُدعي المثاقفة التي هي عملية تفاعل وتبادل وتداخل بين الأنماط الثقافية في فترات زمنية متعاقبة من الزمن، أما الغزو الثقافي فهو عمل تعسفي يمارسه طرف قوي على طرف ضعيف، بغية اختراق ثقافته أو إلغائها كليًّا أو جزئيًّا أو على الأقل التشكيك بأهمية مقوماته الرئيسة كاللغة والتراث الفكري والأدبي والعلمي وينكر صلوحها للعصر الحاضر، عصر الثورة العلمية والتكنولوجية، ثورة المعلومات والمعلوماتية، وهكذا يتضح أن المثاقفة محاولة لاحتلال الذاكرة والعقل تمهيدًا "لاحتلال الأرض واستغلال الناس واغتصاب الثروات، وقد تمارسها أي سلطة مهيمنة على ثقافة شعب مستضعف.[1]

إن الطرفين الغازي والمغزو، المعتدي والمعتدى عليه يكونان غير متكافئين ولا متماثلين، فالأول يمتلك القوة العسكرية والاقتصادية والإعلامية ويأمل في بسط نفوذه وسيطرته على الآخرين، واستغلال ثرواتهم الطبيعية وقدراتهم البشرية، ويمثل هذا الاتجاه الغرب، أما الطرف الثاني فهو أقل قوة ولا يملك القدرة على مغالبة الطرف الأول أو حتى منافسته، بل وصل به الأمر إلى عدم قدرته وعدم توفر الإمكانات له ليدافع بها عن وجوده وحقه في العيش بحرية وكرامة؛ ويمثل هذا الطرف العرب. وهذا ما جعل الثقافة عرضة لسهام الأعداء على مر الزمن اعتقادًا منهم بأن التغلب على العرب لا يتم إلا بإضعاف ثقافتهم وزعزعة ثقة أهلها بها.

---

(١) شحاته الخورى: أوراق ثقافته، دار الطليعة الجديدة، مرجع سابق، ص٩٩، ١٠٠.